الفصل العاشر:

١٠٧ ـ نواعير حماة

أنت لا ترى حماة إلا بعد أن تطل عليها تماماً، ولا يوجد عبارة أخرى تصف الموضع بالنسبة للقادم الجديد، فالعاصي يجري في هذه النقطة في سرير عميق والمدينة بأكملها تختبئ بين جنباته، وتمتد أمامك حقول الحبوب امتداداً رتيباً بدون انقطاع حتى تصل إلى مقابر مترامية الأطراف.

كان خميس الأموات قد عاد مرة أخرى، وقد احتشدت المقبرة بالأحياء احتشادها بالأموات، وانتهى السهل فجأة تحت أقدامنا، ووجدنا أنفسنا على حافة جرف والمدينة كلها ممتدة أمامنا، وعلى جنبات العاصي نواعير فارسية،

وإلى الخلف تل مخروطي تجثم فوقه قلعة حماة أو أبيفانيا، ومن يعرف ماذا يقع غير ذلك في جوانبها فالمكان هو واحد من أقدم الأمكنة في العالم[1].

وبرز جنديان من الأرض، وانتصبا أمامي، وعرضا أن يدلاني على بقعة أنصب فيها مخيمي، ولكني كنت تعبة وتجاوزتهما، وهي حالة ذهنية قد تحدث للإنسان أثناء الترحال، إضافة إلى أن البقع الخالية من البناء بين البيوت حيث أخذانا كانت كريهة على نحو متميز.

وأخيراً أعلن التركي الرائع ـ الذي لم يكن قد تركنا ـ أنه يعرف منطقة جميلة جداً يمكن أن تسرني، وقادنا على طول حافة الخندق إلى أبعد نقطة إلى شمال المدينة حيث أوصلنا إلى مرج معشب في موقع بديع كما نحب ونشتهي، كان النهر يخرج من المدينة الواقعة تحتنا بين بساتين المشمش المزهرة، وقد انبسطت أشعة الغروب الذهبية خلف مآذنها، وناعورة ضخمة ترتفع عالياً فوق الأرض تغني للنهر أغنية عذبة.

إن حماة الآن هي الحد الذي وصل إليه الخط الحديدي الفرنسي(*)، كما أنها مركز المتصرف[2].

وقد زودني الخط الحديدي بدليل ومرافق في نفس الوقت في شخص رئيس المحطة السوري الأصل، وهو رجل ضئيل الجسم شديد السمرة على

(١) تقول المؤلفة: إن النواعير فارسية، ولكن بدون أي دليل، والحقيقة أن هذا غير صحيح، فالنواعير ليست فارسية ولا رومانية، ولا يوجد أي سبب يدعو إلى نسبتها إلى هؤلاء، والمرجح أن تكون من ابتكار آراميي وادي العاصي؛ لأنه لا يوجد لها مثيل في العالم إلا هنا. (المترجم)

(*) حاشية للمؤلفة : سوف تبقى حماة الحد النهائي للخط لمدة شهرين آخرين ثم سيمد الخط حتى يصل إلى حلب.

(٢) اسم المحافظ في ذلك الزمان.

جانب من الغرور، وكان قد تعلم في إرسالية أجنبية ويزدري الكلام في اللغة العربية عندما يستطيع أن يفأفئ بالفرنسية.

وقد قال إن اسمه هو السيد كبيس وإنه يهوى علم الآثار، ويعد نفسه خير مثال للفكر الحديث، وكان ينسب كل الآثار الموجودة في حماة إلى الحثيين سواء أكانت رؤوس أعمدة بيزنطية أو مخرمات تزيينية عربية.

وقد أوشكت أن أصطدم فوراً مع المتصرف بسبب إصراره على تزويدي بثمانية جنود لحراسة مخيمي في الليل، وهي قوة منافية للعقل، قائلة: إنني كنت أكتفي دائماً بحارسين في كل المناطق التي زرتها، وسوف يكون مثل هذا العدد الكبير من الحرس أمراً بغيضاً غير محمول؛ لأنهم سوف لن ينقطعوا عن الكلام طوال الليل، ولن يعرف المخيم من ثَم الهدوء، ولذلك فقد صرفت ستة منهم رغم احتجاجهم بأنهم مجبرون على طاعة أوامر رؤسائهم، وقد وفقوا بين أوامر المتصرف وبين رغبتي بأن قضوا الليلة في مسجد مهدم يبعد حوالي ربع ميل عن مخيمنا، حيث استطاعوا أن يقضوا استراحة رائعة متحللين من المسؤولية.

من حيث الجمال والمناظر الطبيعية لا تستطيع أي مدينة في سوريا أن تنافس حماة بجمالها؛ فالنهر العريض ونواعيره الضخمة مصدر دائم من مصادر الجمال، وأبراج المآذن المزينة بصفوف من الحجارة السوداء والبيضاء مظهر آخر من مظاهر الجمال الهندسي، كما تشكل الطرقات الضيقة المقببة مصائد لتأثيرات الظل والضوء الجمالية لا تجارى، كما أن أسواقها لم تُسقف بسقوف حديدية تُدمّر خصوصيتها كما حدث في أسواق حمص ودمشق[1].

(١) لقد سقفت هذه الأسواق فيما بعد. (المترجم)

أما المسجد الكبير الواقع في منتصف المدينة فقد كان كنيسة بيزنطية، ومن الممكن أن تلمس آثار أبواب ونوافذ البناء القديم بسهولة في جدران المسجد، وربما كان القسم الأسفل من المئذنة الغربية قاعدة لبرج قديم، وساحة المسجد مليئة بالأعمدة البيزنطية والتيجان، والقبة الصغيرة الجميلة قد قامت على ثمانية أعمدة كورينثية.

١٠٨ ـ قبة الخزنة في الجامع الكبير في حماة

وقد لاحظت المؤثرات البيزنطية في الزخرفة النباتية البارزة، فعندما نمت هذه النباتات ضعيفة بحيث لم تستطع أن تنتصب على نحو قائم، فإن نحات الحجر جعلها تلتف قليلاً على رأس العمود كما لو كانت السعف النباتية قد التوت بفعل الرياح، وكانت تأثيراتها الجمالية عظيمة ورائعة.

تسلقتُ وكبيس هضبة القلعة ولاحظتُ أن مساحة قمتها كبيرة. ولكن كل حجارة التحصينات المنحوتة قد جرى أخذها واستخدامها في أبنية البلدة في الأسفل.

وانطباعي أن عزلة التل عما حوله غير طبيعية، وأنه قد جرى عزله بالحفر من جهة الباشورة التي تقع خارج الوادي بحيث تم عزل قسم منها عن حافة القلعة الأساسية، فإذا كان هذا ما حصل فإنه عمل عظيم ضخم من أعمال العصور الوسطى لأن الخندق عريض وعميق.

كان اهتمامي الرئيسي في النهار منصبّاً على السكان، الأُسر المسلمة المتنفذة في حماة أربع، يشكلون وجهاء البلدة: عظم زاده، طيفور، كيلاني، برازي. وقد قابلتُ أحد أفراد الأسرة الأخيرة في دمشق. وربما يصل الدخل السنوي لكل أسرة من هذه الأسر إلى ستة آلاف ليرة ذهبية، تأتي كلها من الأرض والقرى حيث لا توجد حركة تجارية في حماة، وقبل أن تتوطد السلطة العثمانية كما هي عليه الآن كانت هذه الأسر هي الحاكمة الفعلية للمدينة والقرى المحيطة بها[1]. وما يزال لهم نفوذ قوي في إدارة شؤون البلدة،

(١) إن هذا الكلام غير دقيق، فقد يكون صحيحاً بعض الشيء بالنسبة لآل الكيلاني وآل العظم باعتبارهما أسر قديمة في حماة حيث يعود تاريخ آل العظم إلى أوائل القرن الثامن عشر، وآل الكيلاني إلى فترة أقدم من تلك. أما عائلتا البرازي وطيفور فهما أسر حديثة ويعود وجودهما في المدينة إلى أواسط القرن التاسع عشر، حيث تولى عبد الله باشا طيفور ـ وهو أصلاً من دير الزور متصرفية حماة ـ في عهد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر في فترة الاحتلال المصري بعد عام ١٨٣٠م. أما آل البرازي فأصلهم من عشيرة البرازية في عين العرب، وقد كان جدهم رقيباً (شاويش) في الدرك في أواسط القرن التاسع عشر، واستطاع أن يكتسب نفوذاً من خلال الخدمات التي كان يقدمها لملتزمي تحصيل الضرائب. (المترجم)

وموظفو السلطان يتركون لهم الحبل على الغارب، وتصرفاتهم بالإجمال شريرة، وثمة قصة شريرة قديمة تروى عن آل العظم على نحو متكرر متواتر، ولم ينف صحتها على حد علمي أحد من الأسرة:

كان فيما مضى من الزمان رجل من آل العظم اشتهى ـ مثل الملك داوود ـ بستان جاره [1]، ولكن صاحب الأرض رفض البيع، فدبّر ابن العظم مكيدة، فقد أمر بقتل أحد عبيده، وتقطيعه إلى قطع صغيرة، ودفن هذه القطع عميقاً في زاوية من بستان جاره، وبعد أن انتظر فترة مناسبة أرسل إلى جاره البستاني رسالة يقول فيها: «إنك دعوتني أكثر من مرة لشرب فنجان قهوة في بستانك، سوف آتي في اليوم الفلاني، جهّزْ لنا مجلساً»، وجاء ابن العظم في اليوم الموعود إلى البستان، ومُدّت المائدة تحت عريشة ظليلة، ولكن الضيف لم يعجبه المكان، وادعى أنه يثير أعصابه، وذهب مباشرة إلى حيث دفن عبده المقتول، فاحتج صاحب البستان قائلاً: إن المكان قريب من المزبلة، ولكن السيد العظم قال: إنه مرتاح للمكان، وابتدأ بتناول المسلّيات، وفجأة رفع الضيف رأسه قائلاً: «أشم رائحة كريهة»، فقال البستاني: «يا بك إنها رائحة الزبالة» قال السيد العظم: «لا، هناك رائحة مختلفة»، ثم استدعى خدَمهُ وأمرهم أن

(١) قصة الملك داوود معروفة وقد وردت في الكتاب المقدس، وملخصها أن الملك داوود اشتهى زوجة جاره اوريا الحثي، وكان هذا الأخير ضابطاً في الجيش يقاتل في جبال موآب، فاستغل داوود غياب الزوج ونزى عليها، فحملت سفاحاً، فأرسل إلى قائد الجيش في جبال موآب أن يرسل أوريا الضابط الحثي في إجازة ليتجنب الفضيحة، فأتى الضابط، وعندما قام داوود في الليل يتفقد جواره وجد الضابط نائماً على باب داره، فسأله عن السبب، فقال: إنه وجد من العيب أن ينام إلى جانب زوجته ورفاقه يقاتلون في الجبال، فأرغمه داوود على الدخول إلى بيته والنوم عند زوجته ثم أرسل رسالة لقائده في جبال موآب أن يضع اوريا الحثي في مقدمة الجنود لأجل أن يقتل، وقتل فعلاً فتزوج داوود زوجة الحثي التي ولدت له فيما بعد سليمان. «راجع العهد القديم من الكتاب المقدس» (المترجم)

يحفروا الأرض حيث أشار، وتم الكشف عن أجزاء العبد المقتول والتعرف عليها، ووجّه الاتهام بالقتل إلى صاحب البستان وأُودع السجن، وأَخذ السيد العظم البستان تعويضاً عن عبده المقتول.

قال كبيس: ولم تتوقف هذه الطرق المنافية للعدالة حتى الآن، فمنذ عهد قريب جداً سُرقت كمية من البصل من دكان تخص السيد عبدالقادر العظم، تقع في الحي الواقع تحت مخيمي، فجاء خدم عبد القادر إلى منزل مختار الحارة وطلبوا منه مسروقات سيدهم، ولم يكن يعرف أي شيء عن الموضوع ولا يعرف من هو السارق، وأبلغهم ذلك، فلم يصدقوه، وأمسكوا به وبابنه، وجرحوا الابن برصاصة في يده، ثم سحبوا الاثنين إلى شاطئ النهر وجلدوهما بالسياط حتى شارفا على الموت، ثم تركوهما ليعودا إلى البيت بشق النفس، وقد انتشر الخبر في كل أنحاء المدينة ولكن الحكومة لم تفعل شيئاً لمعاقبة عبدالقادر.

ذهبت إلى منزل خالد بك العظم الذي يعد أجمل قصر في المدينة، ويشبه في جماله قصر العظم الشهير في دمشق، وأدخلني خالد إلى غُرفٍ نُقشت كل بوصة منها بتزيينات متنوعة من التجصيص الفضي والذهبي من الطراز الفارسي، والخشب المحفور والفسيفساء، وهذه الغرف مفتوحة على باحة في وسطها بحيرة وحولها رواق من أَجلّ الأعمال العربية، وثمة أصص على الجوانب مزدانة بالنرجس والحوذان موضوعة في زوايا الباحة. ولنساء قصر العظم سمعة في المدينة ربما أكثر ضخامة من سمعة جمال القصر الذي يضمهن، ويقال: إنهن من أجمل نساء المدينة.

١٠٩ ـ التكية الكيلانية في حماة

زرت كذلك منزل آل الكيلاني الساحر على العاصي والتكية الكيلانية، وهي تحتوي على ضريح يضم ثلاثة من أجدادهم، وغرف مطلة على النهر وعلى النواعير الفارسية الشجية.

وذهبت من هناك لزيارة المتصرف الذي كان عجوزاً محنيّاً عن طاقين، ولا يتحدث إلا اللغة التركية، وقد شعرت بالارتياح جداً؛ لأنني وجدته لا يحمل أي ضغينة لي بسبب تصرفي القاسي في قضية الحرس.

وفي طريقنا إلى الغداء في البيت قابلْنا عجوزاً أفغانياً مرتدياً ثياباً بيضاء، اسمه درويش أفندي، وقد أوقف موكب المتصرف ليسأل عن شخصي ومن أكون، وعندما علم أنني إنكليزية اقترب مني مكشراً وحيّاني وقال بالفارسية: «الإنكليز والأفغان أصدقاء». وقد كان يعرف مثلما يعرف رجل

الشارع البريطاني وربما أكثر عن الزيارات المتبادلة بين كابول وكالكوتا[1]، ومغزى هذه الحادثة العرضية «التي تطورت من خلال زيارة ودّيّة جداً ومملة من قبل درويش أفندي» يبين أن ما يحدث في أبعد زاوية قَصيَّة من آسيا ويعرف تقريباً وفي الحال في أقصى نقطة في الطرف الآخر، ولا أبالغ إذا قلت: إن عبور فرقة إنكليزية أراضي أفغانستان سوف يؤدي إلى تعرض السياح الإنكليز إلى السخرية في شوارع دمشق.

إن الإسلام هو الرباط الذي يوحد الأجزاء الغربية مع الأجزاء الوسطى من القارة كما لو كان تياراً كهربائياً يتم بوساطته انتقال الأحاسيس والمشاعر على نحو فعال، وتتزايد فعاليته بسبب عدم وجود مشاعر وطنية محلية كبيرة يمكن أن توازيه أو تعيق تأثيره، فالتركي أو الفارسي عندما يقول بلادي، لا يقصد بهذه العبارة ذات المعنى الذي يقصده الإنكليزي أو الفرنسي عندما يقولها، إن ولاءه الوطني محصور بالبلدة أو المدينة التي ينتمي إليها، وفي أعظم الأحوال المقاطعة الموجودة فيها بلدته، فيقول مثلاً: أنا من أصفهان أو أنا من قونية حسب البلدة التي جاء منها مثلما يجيب السوري فيقول: أنا من دمشق أو حلب.

وكما سبق وقلت: إن سوريا هي اصطلاح جغرافي لا يربط أهلها أي شعور وطني سوري داخل صدورهم، هذا ما يسمعه الإنسان من الناس في الأسواق، أو من أصحاب المحلات التجارية التي ترتبط تجارتهم بشكل صميمي بالأوضاع المحلية في بلاد أو مناطق بعيدة عن بلدانهم التي يقطنون بها، وعن

(١) كانت حكومة الهند البريطانية تتولى في شرقي آسيا وفي الخليج العربي وكل المناطق والدول القريبة من الهند بشكل عام رعاية المصالح البريطانية وإدارتها. (المترجم)

حساباتهم المالية المحلية، أو استمع إلى البغالة الذين يحمّلون دوابهم أكثر من طاقتها متنقلين من مدينة إلى أخرى. تبدو من خلال ذلك أنّ كل آسيا مرتبطة مع بعضها بسلاسل دقيقة من القرابة، وكل عمل أو تصرف مهما كان دقيقاً في سياسة أوربا الخارجية من الصين إلى حيث ترغب من البلدان الآسيوية، سوف يقيم ويوزن بقليل أو كثير من الدقة في ميزان الرأي العام، وليس من مهام الرحالة أو الذي يصغي إلى الشائعات أن يستخلص النتائج، ونحن لا نستطيع إلا كتابة التقارير، وبالنسبة لأي شخص يهتم بالإصغاء لما يتناثر من شفاه أولئك الذين يجلسون حول نيران مخيمنا، أو أولئك الذين يركبون معنا عبر الصحارى والجبال، يعرف أن أحاديثهم تشبه القش الذي يطفو فوق مجرى السياسة الآسيوية من شأنه أن يبين مسرى التيار، وتتعرفهم الشخصية الخبيرة من خلال البضائع الموجودة في المخازن والكلمات المستعملة التي تعبر عن فن إدارة الحكم.

لقد أَلِفوا الحرب والتفاوض والتواسط وفي الرعاية الطويلة وإخفاء الانتقام بعناية، وسواء أناقشوا نتائج العداوة الدموية، أو عواقب التحاسد الدولي فإن تقديراتهم غالباً صحيحة، وتخميناتهم قريبة من النقطة المطروحة على بساط البحث [1].

وبالنسبة للمرحلة الراهنة وحسب المدى الذي وصلت إليه خبرتي فإن اسم الإنكليز يحمل وزناً أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى، لقد لاحظت

(١) تبين هذه الفقرة الواضحة جداً أن تنقيب هؤلاء الأوربيين عن الآثار والسياحة هنا وهناك ليست إلا ستاراً لدراسة المنطقة، وإيجاد الوسيلة المناسبة لخدمة مصالح بلادهم فيها، وقد عملت جير ترودبل وفيلبي ولورنس وكلوب وغيرهم من المبعوثين الإنكليز كما يعمل غيرهم من السياح الأجانب في آسيا وإفريقيا على تهيئة المناخ لاستعمار بلادهم لهذه المناطق سواء في البلاد العربية والإسلامية أو في أفريقيا، وقبل ذلك في أمريكا وأستراليا إلخ. (المترجم)

أن هناك مسافة واضحة جداً بين الموقف منا الذي سبق ولاحظته بألم كبير قبل خمس سنوات أثناء أسوأ فترة من حرب البوير، والموقف منا الآن. ويعود تغيير هذا الشعور نحونا كما استطعت أن أحكم من الأحاديث التي سمعتها ليس لانتصارنا في جنوب أفريقيا بمقدار ما يعود إلى إدارة اللورد كرومر الرائعة في مصر وسياسة اللورد كارازون في الخليج الفارسي، وتحالفنا مع المنتصرين اليابانيين [1].

١١٠ ـ رأس عمود في المسجد في حماة

بعد أن تخلصت آخر الأمر من الأفغاني وجلست وحيدة على حافة العشب الذي يفصل بين خيمتي وبين البلدة الواقعة أسفل المنحدر بعدة مئات من الأقدام أتت شخصية هامة بعربتها من أجل تقديم احترامها وكانت هذه الشخصية هي المفتي محمد أفندي، وقد جلب معه رجلاً ذكياً من بصرى الحرير في حوران، كان قد سافر إلى قبرص. وكان لديه الكثير مما يتحدث به عن إدارتنا هناك. (كان معظم ما قاله يدل على سوء الإدارة).

(١) الحقيقة أنه حيثما يحل الإنكليز يحل الخراب.. لقد استعمروا مصر فأخروا تطورها مئة عام. واحتلوا عدن مئة وثلاثين سنة وخرجوا منها ونسبة الأمية في جنوب اليمن ٩٥ ٪، وكانوا هم المسؤولين عن استيطان اليهود في فلسطين، وكل ما نتج عنه من كوارث، وأبقوا مشيخات الخليج على حالها من الأمية والبداوة والجهل حتى خرجوا. (المترجم)

كان للمفتي نفس هيئة قاضي حمص والشيخ النقشبندي، العيون الحادة، والذكاء الآسيوي اللمّاح، والذي تتشوه ملامحه إلى حد ما بدهاء يحكي اعتباره نوعاً من المكر. وقد أجلس نفسه على أفخم كرسي في الخيمة ملاحظاً بنوع من الرضا: «سألت هل تستطيع أن تتحدث بالعربية؟ وعندما أجابوا نعم أمرت فوراً بتجهيز عربتي وجئت».

وقد تحدث عن اليمن الذي كان قد أرسل إليها قبل عدة سنوات من تجدد السلام بعد الثورة العربية الأخيرة، وتحدث عن رحلة من الساحل إلى الصحراء الداخلية الحارة جداً، وعن الجبال الداخلية المغطاة بالأشجار حيث تهطل الأمطار صيفاً شتاءً وعن عناقيد العنب الضخمة التي تتدلى في الكروم، وتنوع الفواكه اللانهائي في البساتين، وعن المدن الكبيرة مثل دمشق والمحاطة بأسوار تعود إلى ألف سنة، والعرب هناك سكان مدن وقرى وليسوا بدواً وهم يكرهون الحكومة العثمانية أكثر مما هي مكروهة في أي مكان آخر، وقد اعتادوا الفرار إلى الجبال حيث يستطيعون أن يمكثوا فيها عدداً لا نهائياً من السنين.

ولكنه كان على خطأ فقد كانت شهور قليلة كافية لتحرز عساكر السلطان النصر، فمن خلال الشجاعة بشكل عام، والقدرة على تحمل المسير في الصحراء، وعداء القبائل العربية لبعضها أكثر من عدائها للعثمانيين فشلت الثورة، ولكن بعد تغيير نمط إخماد الثورات في تركيا عادت فتجددت الثورة مرة أخرى.

كما أخبرني المفتي أيضاً بأنه أينما حفر الإنسان في حماة يجد قواعد أبنية قديمة حتى تحت مستوى النهر.

وتبع المفتي صديقي موظف البرق التركي الذي سر لرؤيتي في مخيمي من جديد، ثم تبعه المتصرف مواصلاً قلقه ونزل متمايلاً من عربته، وقد أعارني عربته الفيكتوريا[1] لكي أزور أجزاء البلدة الواقعة شرقي النهر، وقد ركبتها مع ناظر المحطة كبيس، ورافقنا فارسان مواكبةً للعربة وكانا لا يرتديان ـ على نحو استثنائي ـ أسمالاً بالية. ويدعى الحي الشرقي حي الحاضر، وهو حي البدو بشكل خاص. لقد تقنعت المدينة العربية هنا بلغتها الصحراوية الفجة الوعرة، وأسواقها التي تعج بالبدو الذي يفدون إلى المدينة ليشتروا القهوة والتبغ والعباءات المخططة. وهو يحتوي على مسجد صغير مهدم يقال إنه سلجوقي الطراز يدعى مسجد الحيّات؛ بسبب الأعمدة المنحوتة على نوافذه التي تشبه الحيّات.

وفي النهاية الشمالية لباحة المسجد يوجد غرفة تضم قبراً رخامياً هو قبر أبي الفداء، العالِم الجغرافي الشهير، أمير حماة، وقد توفي عام ١٣٣١م. وقد زين قبره بنقوش جميلة تبين تاريخ وفاته بالتقويم الهجري.

عُملتْ وليمة عشاء تلك الليلة ضمت ناظر المحطة، وطبيباً سوريا هو السيد سلوم[2] وكاهناً يونانياً [3]، وتجاذبنا الحديث حتى وقت متأخر. مجموعة متنافرة فطرياً.

لقد تلقى الدكتور سلوم تعليمه في الكلية الأمريكية في بيروت، حيث جاء جميع ممارسي المهن الطبية كباراً وصغاراً والمنتشرون في جميع أنحاء سوريا،

(١) عربة حنطور.

(٢) توفيق سلوم، طبيب من قرية محردة التابعة لحماة، زاول المهنة في حماة من أوائل القرن العشرين حتى عشريناته كما أُخبرتُ. (المترجم)

(٣) هو مطران الروم الأرثوذكس على الأغلب.

وقد كان مسيحياً من طائفة تختلف عن طائفة الكاهن، كما أن كبيساً يتبع طائفة أخرى خلافاً للطائفتين [1].

قال الكاهن: « لا توجد مشاعر معادية للمسيحيين في حماة بشكل عام، ولكن هناك قليل من الاحترام لردائه الكهنوتي، حيث إنه كلما مشى في البلدة ترمي عليه بعض النسوة النفايات من أسطحة منازلهن صارخات: كاهن مسيحي كلب».

وتحدث كبيس عن الفوائد التي سوف تجنى من سكة الحديد «سيئة الإدارة كمؤسسة تجارية كما أتخيل» قائلاً: «مما لا شك فيه أن حماة حققت مكاسب من وصول الخط إليها، لقد ارتفعت الأسعار في السنتين الأخيرتين، واللحم الذي لم يكن له أسواق، يُرسَل الآن إلى دمشق وبيروت. وإنه هو بنفسه كان قادراً عندما جاء إلى حماة أن يشتري خروفاً بفرنك واحد، وهو مضطر الآن لدفع عشرة فرنكات».

زودني المتصرف بأفضل شرطي حصلت عليه في رحلاتي جميعاً ممثلاً بشخص الحاج محمود من أهالي حماة، كان رجلاً طويلاً عريض المنكبين قد سبق وخدم في حرس السلطان في إسطنبول.

كما حج ثلاث مرات؛ واحدة كحاج واثنتان كجندي

١١١ ـ رأس عمود في حماة

(١) كان توفيق سلوم بروتستانيًا، وكبيس كاثوليكياً، والكاهن أرثوذكسياً.

مرافقة، وقد ركب برفقتي عشرة أيام، أخبرني فيها من الحكايا ما يملأ مجلداً كاملاً، وكان يحيط أحاديثه بصور بيانية، فهو في التعبير بمثابة أستاذ، وقد سبق وسافر مع عالِم آثار ألماني، وتعلم منه ما يهمّ الغربيين من نقوش وكتابات أثرية. قال:

«في قلعة المضيق أخبرته (أي عالم الآثار الألماني) إذا كنتَ تريد أن ترى حجراً نقش عليه رسم يمثل حصاناً مع فارسه، فأنا بنور الله أستطيع أن أريكه، وقد تعجب كثيراً آنذاك وكافأني ببعض المال، بالله وبمحمد رسول الله، أنتِ أيتها السيدة سوف تشاهدينه رأي العين».

وهذه مأثرة محمود تمت ملاحظتها على ضوء التجربة فيما بعد أكثر بكثير مما بدت من الوهلة الأولى، لأن أحد أكبر الصعوبات في البحث عن العاديات هي أن الناس خارج الأماكن المألوفة لا يميزون النقوش عندما يرونها، ولن تندهش إذا فشلوا في التفريق بين النقوش الحقيقة وبين الصدوع والعلامات التي تتركها عوامل الطبيعة على الحجارة. ولكنك تفاجأ عندما تسأل فيما إذا كان هناك حجارة على صور رجال أو حيوانات بأن يجيبك من تحاوره: «والله نحن لا نعرف كيف تكون صورة الإنسان، وأكثر من ذلك إنك إذا أريته نقشاً يحتوي على صورة منحوتة فوقه ستفاجأ بقوله غالباً بأنه لا يعرف فكرة عما يمثله النقش[1]».

ولكن مرافقة محمود للرحالة الياباني هي من أكثر الرحلات الجديرة بالملاحظة، حيث أرسلت الحكومة اليابانية هذا الرحالة لدراسة فن العمارة

(١) الحقيقة أن معظم البعثات الأثرية الأجنبية ومعظم المنقبين عن الآثار من الأجانب لصوص، وقد سرقت كميات هائلة من آثار البلاد العربية لتقبع في المتاحف في أوربا وأمريكا، ولا شك أن المواطنين بحسهم الفطري الطبيعي يرتابون ـ ومعهم الحق بذلك ـ بالأجنبي الذي يتظاهر بالعلم وبالبحث في التاريخ. ويخبئ في داخله لصاً بكل ما في الكلمة من معنى، وللأسف فإن كثيراً من المواطنين تحول إلى سماسرة ولصوص آثار لبيعها للعالم الأوربي الأمريكي بإغراءات كثيرة أهمها المال. (المترجم)

الروماني في الأقاليم الشرقية للدولة الرومانية، كما علمت فيما بعد، وقد دُهشتُ متسائلةً، كيف وجد اليابانيون ـ وهم منشغلون بالحرب مع الروس ـ وقتاً لمثل هذه الدراسات. ولكن استغراب محمود كان أكثر إثارة؛ حيث دهش من إحراز مواطني هذا الرجل القصير الضئيل الجسم النصر على الروس المفزعين.

قال محمود: «كان يركب طوال النهار، ويكتب طوال الليل، ولم يكن يأكل شيئاً سوى قطعة من الخبز وكأسٍ من الشاي، وعندما كانت تعترضه قضية يريد أن يرفضها يقول: (نو، نو)؛ لأنه لم يكن يتكلم العربية ولا التركية، وهذه كلمة فرنسية.» ختم محمود كلامه.

ولاحظت أنها إنكليزية وليست فرنسية، الأمر الذي زوّد محمود بمادة للتفكير، لأنه أضاف بفرح: «نحن لم نكن سمعنا بهم قبل الحرب مع الروس، ولكن ولوجه الحقيقة كان الإنكليز يعرفونهم».

يصنع نهر العاصي نصف دائرة في مسيره بين حماة وقلعة شيزر، وقد سرنا عبر وتر القوس عابرين نفس الحقول المفلوحة الكئيبة التي سبق وسرت فيها في طريقي من مصياف، وتتناثر فيها القرى المبنية بالطين والأكواخ ذات القبب التي تشبه خلايا النحل، ويشاهد هذا الطراز من القرى المقببة على طول السهول الممتدة من حماة إلى حلب، وهي لا تشبه أي طراز من القرى فيما عدا تلك التي تظهر في رسوم كتب الرحلات في أفريقيا الوسطى [1].

(١) الحقيقة أن هذه القبب شيء مبتكر ورائع بالنسبة لوسائل البناء والظروف الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الزمان؛ فشكل القبة المخروطي يجعل تأثرها بالمطر والثلج أو الرياح مهما كانت عاتية شبه معدوم، وهي تؤمن عزلاً رائعاً عن الجو الخارجي؛ بسبب سماكة الجدران، فهي دافئة في الشتاء باردة في الصيف، ويؤمن ارتفاع سقفها برودة الهواء في الجزء الأسفل منها لصعود الهواء الساخن إلى الأعلى في الصيف، كما يتجمع دخان التدفئة في أعلاها في الشتاء فلا يشعر المتحلقون حول نار الجَلّة أو القش أو الحطب بالاختناق؛ نتيجة لأسلوب التدفئة في ذلك الزمان، وهي لا تختلف كثيراً عن البيوت الهرمية التي تبنى بها القرى الإنكليزية في بريطانيا. (المترجم)

يبني الرجل قبة لسكنه وعندما يصبح أكثر غنى يبني قبة ثانية وثالثة ورابعة إلخ حسب غِناه وعدد أولاده حتى يصل العدد إلى أكثر من دزينة من القبب، بعضها لسكناه وبعضها لماشيته وطيوره من دجاج وخلافه، وبعضها لمحاصيله أو تبنه، وتلتف جميعها حول باحة أو حوش يشكل مفترجاً لأسرة وماشيتها.

ورأينا على مسافة قرية تدعى محردة. قال محمود: إن أهلها مسيحيون، وينتمون جميعاً إلى الكنيسة اليونانية[1]، وقد كان السكان يعيشون بسعادة وازدهار حتى قادهم سوء حظهم فاكتشفتهم إرسالية دينية التي نوعت السبل وحولت عقيدة ستين منهم إلى الكنيسة الانكليكانية، ومنذ ذلك الحين لم تمر لحظة راحة بدون شجار في هذه القرية.

وبينما كنا راكبين حدثني الحاج محمود قصصاً عن الإسماعيلية والنصيرية، وقد قال عن الأولين: إن صورة آغا خان موجودة في كل بيت من بيوتهم وأنهم يعبدون المرأة، فكل أنثى تولد في السابع والعشرين من رجب تُعزل وتُحفظ حيث تعتبر تجسيداً للإله ويدعونها روزاً، ولا يسمحون لها بالعمل، كما لا يقص شعرها، ويحتفظ كل رجل بين ثيابه بقطعة من ثيابها، أو أن يضع في عمامته شعرة من رأسها، ولا يُسمح لها بالزواج.

قلت: «ولكن ماذا لو أرادت هي الزواج».

قال محمود: «سيكون مستحيلاً، لن يرغب أن يتزوجها أحد، وهل يستطيع أحد أن يتزوج إلهه».

(١) «اصطلاح يطلق على طائفة الروم الآرثوذكس، وقد كان معظم أساقفتها من اليونان».

ويقال: إن لدى هذه الفرقة كتباً سرية، ولكن لم يقع أي منها في يد دارسين غربيين. وقد رأى محمود وقرأ إحداها، كانت كلها في مدح الروزة مع وصف لكل جزء من أجزاء جسدها بالثناء والمديح. كما قال: إن الإسماعيليين يقرؤون القرآن أيضاً. وتحدث أيضاً مثل هيرودتس عن قضايا أخرى غريبة لم أجد من المناسب أن أعيدها.

ويبدو أن هذه العقيدة تقفز من أعماق المعتقدات القديمة الغامضة لعبادة عشتار، أو من عقيدة أقدم وأكثر عالمية وانتشاراً من الجميع؛ عقيدة تبجيل أو عبادة أم الإله، ولكن اتهامات قلة الاحتشام التي حكيت ضدها والتي جمعتها غير موجودة [1].

وكان لدى محمود كثير من الحكايا حول النصيرية؛ ذلك أنه كان على دراية جيدة بالهضاب التي يعيشون فيها، حيث كان موظفاً لعدة سنوات في جمع ضريبة الرأس عن الطائفة. قال: «إنهم كفار، من لا يقرأ القرآن ولا يعرف اسم الله». وقد روى قصة غريبة سوف أرويها نظراً لما تمثله:

«حدثت القصة يا سيدة في شتاء كنت أجمع فيه ضريبة الرأس، وفي شهر كانون الأول يحتفل النصيريون بعيد يتوافق مع عيد المسيحيين، ويقيمون بهذه المناسبة وليمة كبيرة. وفي اليوم السابق للعيد كنتُ أركب مع اثنين في المنطقة، وقد سقطت كمية كبيرة من الثلج بحيث لم نعد نستطيع السير أبعد. والتمسنا مأوى في أول قرية في طريقنا حيث لجأنا إلى بيت الشيخ؛ لأن هناك دائماً شيخ في كل قرية يسمى شيخ القرية، إضافة إلى شيخ ديني. وينقسم سكان القرية إلى عارفين أو عقلاء وهؤلاء مطلعون على أسرار

(١) خرافات عامية مرجعها التخلف والجهل. (المترجم)

المذهب، وغير عارفين أو جهال وهم لا يعرفون إلا قليلاً عن المذهب. أما النساء فلا يعلمن شيئاً عن أمور الدين؛ لأن المرأة بالله لا تستطيع أن تحتفظ بسر. وقد استقبلنا الشيخ بترحاب وآوانا. وفي صباح اليوم التالي استيقظت فلم أجد أحداً في المنزل إلا النساء، وصرخت بالله وبمحمد رسول الله أي ضيافة هذه الضيافة؟ ألا يوجد رجال يعملون القهوة بدلاً من النساء؟

وقد أجابت النسوة نحن لا نعرف ما يفعله الرجال، لقد ذهبوا جميعاً إلى منزل العالِم، ونحن لا يسمح لنا بالدخول، فنهضت وذهبت متسللاً بخفة إلى منزل العالِم، ونظرت من النافذة فرأيت العارفين جالسين في الغرفة على شكل دائرة، وجلس العالِم في قلب الدائرة، وكان أمامه وعاء من الخمر وجرة فارغة، وكان الشيخ يسأل الجرة بصوت خافت، وبنور الحق لقد سمعت الجرة تجيب بصوت وتقول: (بل.. بل). ودون أدنى شك يا سيدتي كان ذلك نوعاً من السحر.

وبينما كنت أنظر رفع أحدُهم رأسه ورآني، وخرجوا من البيت وقبضوا عليّ، وكانوا يريدون ضربي، ولكنى صرخت: «أنا ضيفك يا شيخ». وهكذا تقدم العالِم إلى الأمام ورفع يده، فتركني كل من كان ممسكاً بي حالاً، وانكب الشيخ على قدمي، وقبّل يدي وطرف سترتي قائلاً: «يا حجي إذا لم تتحدث بما رأيت سوف أعطيك عشرة مجيديات». وبحق نبي الله عليه السلام لم أرو الحادثة لأحد حتى هذا اليوم يا سيدتي[1]».

(١) كان الكثير من هذه الخرافات المرتبطة بالجهل منتشراً في أوائل القرن العشرين، ولا يزال تحضير الأرواح موجوداً عند الدجالين والمخرفين في كل أنحاء العالم، وبشكل خاص في إنكلترا. (المترجم)

١١٢ ـ قلعة شيزر

بعد ركوب أربع ساعات وصلنا إلى قلعة سيجر [١]. وهي تقع على ظهر من الأرض مقوس مشقوق من وسطه بأخدود صناعي، وينحدر بجروف عالية حتى العاصي، الذي يجري هنا ضمن سرير ضيق بين جدارين من الصخور. وتشكل أسوار القلعة التي تتوج الهضبة بين الأخدود والنهر منظراً رائعاً عندما ينظر إليها من أسفل الوادي، وثمة قرية صغيرة من القبب في أسفل الهضبة. ويجب أن تكون بلدة لاريسا السلوقية قابعة على المنحدرات العشبية إلى الشمال، يدل على ذلك وجود الأحجار المنحوتة والمبعثرة هنا وهناك.

ونصبت مخيمي عند النهاية البعيدة للجسر في أجمة من شجر المشمش جللها الزهر بثوب ثلجي، وتسمع بين جنباتها همهمات النحل، وكان العشب مرصعاً بكثافة بشقائق النعمان ونبات الحوزان القرمزي. كانت القلعة ملكاً

(١) ضبطها شيزر. ولكن العوام يلفظونها سيجر؛ لتقارب لفظي السين والشين في اللغات السامية (المترجم)

للشيخ أحمد السيجري وهي في حوزة أسرته منذ ثلاثة قرون، وكان يسكن في مجموعة من البيوت الحديثة الصغيرة في وسط القلعة، وقد أخذت الحجارة من أبنية القلعة القديمة، كما كان يملك مساحة معتبرة من الأرض وثلث القرية الواقعة تحتها، وكان يملك الثلثين الآخرين، ولكن على نحو غير متساو بعض من آل الكيلاني القاطنين في حماة وعرب السماطية، وهم بدو نصف رحل يقيمون فيها في الشتاء فقط.

كان معي رسالة للشيخ أحمد من مصطفى البرازي، ولكن وعلى الرغم من رأي محمود الذي قال: إنني لن أجده بسبب وجود مشكلات بين عرب السماطية وآل السيجري تعود إلى زمن طويل.

صعدنا نحو البوابة وسرنا على طول الطريق المكون من بقايا عقود حجرية مقببة تشبه مدخل قلعة الحصن فوق كتل من بقايا الخراب حتى وصلنا إلى القرية الجديدة حيث يسكن، وسألت عن منزل الشيخ أحمد، فأُرشدتُ إلى باب خشبي كبير محكم الإغلاق، طرقت الباب وانتظرت، وطرق محمود على نحو أقوى وانتظرنا ثانية. وفي النهاية فتحت فتاة جميلة جداً مصراع نافذة في أعلى الجدار وسألت ماذا نريد؟ فقلت: إنني أحمل رسالة من مصطفى البرازي إلى الشيخ أحمد وأريد أن أراه.

أجابت: ليس هنا.

أجبت: أريد أن أسلم على ولده.

قالت: لا يمكن أن تريه، إنه في السجن في حماة متّهم بالقتل.

وأغلقت المصراع تاركة إياي حيرى حول الطريقة المثلى التي تقتضيني العمل في مثل هذه الظروف الدقيقة، وفي هذه الأثناء جاءت فتاة إلى الباب

وفتحت درباسه اليدوي فأعطيتها الرسالة وبطاقتي مكتوبة باللغة العربية متمتمة بكلمات حول أسفي ومشيت. وحاول محمود الآن إيضاح القضية. كانت واحدة من تلك الحكايا الطويلة التي تسمعها في الشرق بدون بداية أو نهاية. وبدون أي إشارة تبين أيّاً من أبطال الحكاية على حق، ولكن الاحتمال الملازم للسرد يبين أن الجميع على خطأ.

«سرق السماطية بعض ماشية آل السيجري، نزل أبناء الشيخ أحمد من الحصن وقتلوا اثنين من عرب السماطية، في القلعة يقولون: إن العرب هاجموهم وإنهم قتلوا من قتلوه دفاعاً عن النفس، وكانت الحكومة التي تأخذ دائماً على آل السيجري استقلالهم النسبي قد استغلت الفرصة لتعذبهم سواء أكانوا على خطأ أو على صواب، وأُرسل الجنود من حماة، وحُكم على أحد أبناء الشيخ بالإعدام، كما رمي اثنان من أبنائه في سجن حماة، كما تمت مصادرة كل ماشية الأسرة، وأمر بقية أفراد الأسرة بعدم التحرك خارج القلعة.

والحقيقة إنهم لن يستطيعوا ذلك؛ لأن عرب السماطية مترصدون لهم خارج بوابة القلعة، جاهزون لإطلاق النار عليهم وقتلهم إذا ما تجاوزوا الأسوار. وقد استغاثوا بالحكومة في حماة من أجل الحماية فتمركز عشرة من الحرس قرب النهر، ولم يكن بالإمكان معرفة فيما إذا كانوا قد فعلوا ذلك لحماية آل السيجري أو لإبقائهم مسجونين في قلعتهم على نحو أدق.

لقد حدثت هذه الحوادث منذ سنتين وآل السيجري إما محبوسون في السجن في حماة أو محبوسون في قلعتهم في سيجر (شيزر) غير قادرين على زراعة حقولهم التي تحولت بالنتيجة إلى أرض بور. وأكثر من ذلك لا يبدو أن هناك أملاً في تحسن الموقف.

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم جاءت رسالة من عبد القادر شقيق الشيخ أحمد يقول فيها: إنه سيكون مسروراً لاستقبالي، وإنه كان يريد أن يأتي بنفسه لزيارتي لو استطاع مغادرة القلعة، وصعدت إلى القلعة دون محمود، وسمعت كامل القصة مرة أخرى من زاوية آل السيجري الذين لم يمكنوني من الوصول إلى نتيجة حيث كانت في معظم نقاطها الأساسية مختلفة تماماً عما سمعته من محمود والنقطة الوحيدة القابلة للنقاش ـ وقد لا تكون ذات صلة أساسية ظاهريا بالموضوع ـ هي أن نساء آل السيجري جميلات جداً، وهن يرتدين الثياب البدوية الزرقاء. ولكن هذه الثياب والأغطية التي تتدلى من رؤوسهن قد ثبتت فيها حلى ذهبية ثقيلة وصفائح تشبه كنز المسينيين. واحدة خلف كل صدغ. وعلى الرغم من حسن ضيافتهم فقد اضطررت لقطع الزيارة بسبب البراغيث التي كانت تقاسمهم أسرهم

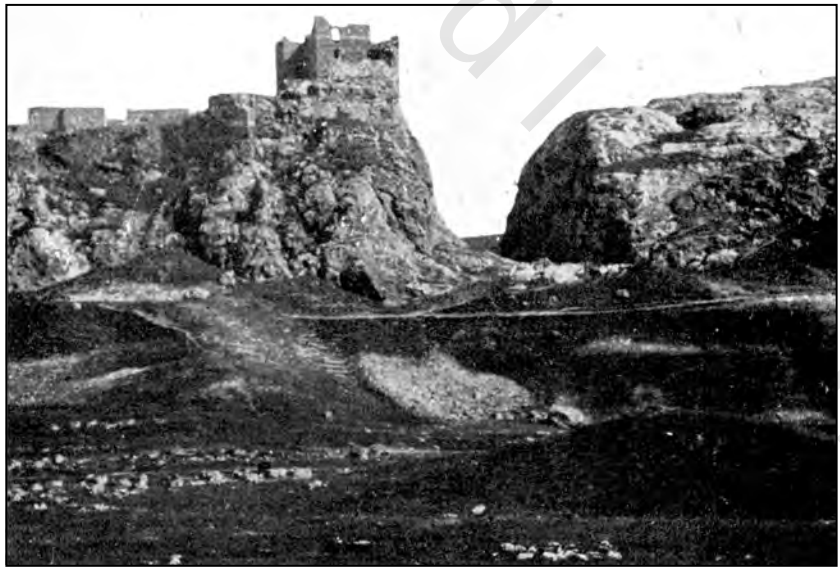

١١٣ ـ قلعة شيزر ـ مقطع امتداد الضهرة الصخرية عند حافة القلعة

داخل الحصن. ومشى معي صبيتان من صبايا آل السيجري ونزلنا عبر خرائب الحصن وعندما وصلنا إلى البوابة الخارجية الكبيرة ونظرتا إليّ واقفة على العتبة قالت إحداهن: «الله.. أنت تستطيعين السفر حول العالم كله ونحن لا نستطيع السفر إلى حماة!».

ورأيتهن عند البوابة عندما التفت مرة ثانية لألوح لهن بيدي إشارة الوداع، كانتا طويلتين منتصبتين ممتلئتين رشاقة وعذوبة، ترتديان ثياباً زرقاء ضيقة، وقد علقن الذهب فوق حواجبهن، وعيونهن تتتبع الطريق الذي قد لا تسلكانه؛ لأنه ومهما سيحصل في المستقبل للمشايخ فلا شيء أكثر تأكيداً بأن نساء الحصن الجميلات مثل هاتين سوف يبقين سجينتان من قبل آبائهن في قلعة سيزر.

وسرنا في اليوم التالي في سهول مزروعة حتى قلعة المضيق، مرحلة قصيرة استغرقت أقل من أربع ساعات، وعلى الرغم من وجود العديد من آثار بقايا البلدات القديمة المخربة فثمة واحدة أتذكرها بشكل خاص في قرية صغيرة تدعى الشيخ حديد، حيث كان هناك تل يبدو كما لو كان القسم العلوي من قلعة إغريقية.

إنّ الرحلة كانت غير ممتعة إلا من حكايا محمود، وقد دار حديثه هذه المرة حول صفات ومزايا العديد من الشعوب التي تشكل الإمبراطورية التركية والتي كان على معرفة وفيرة بالعديد منها، وعندما أتى على ذكر الشراكسة تبين أنه يشاركني كراهيتهم.

قال: «آخ يا سيدتي، هم لا يعرفون كيف يردون المعروف، الأب يبيع أبناءه، والأبناء يقتلون آباءهم إذا تصوروا أن في جيوبهم بعض المال.

لقد حدث وكنت أركب من طرابلس إلى حمص عندما قابلت قرب الخان ـ أنت تعرفين المكان ـ شركسياً يمشي وحيداً، فقلت له: السلام عليكم، لماذا تمشي؟ «وذلك لأن الشركسي لا يسافر أبداً على قدميه»، فقال: حصاني سُرق مني وأنا أسير خائفاً على هذا الطريق، قلت: تعال معي وسوف تصل آمناً حتى حمص، ولكني جعلته يمشي أمام حصاني؛ لأنه كان مسلحاً بسيف. ومن يعرف ماذا يمكن أن يفعل الشركسي إذا لم يكن تحت المراقبة.

وبعد قليل مررنا برجل عجوز يعمل في الحقل، فركض الشركسي باتجاهه وتكلم معه، ثم شهَرَ سيفه كما لو كان يريد قتله، فصرخت به: ماذا فعل هذا الرجل العجوز لك؟ فأجاب: بالله أنا جائع، وقد طلبتُ منه طعاماً، فقال ليس لديّ، ولذلك سوف أقتله.! فقلتُ: دعه في حاله، أنا سوف أعطيك طعاماً.. وقاسمته بكل ما لدي من خبز وحلوى وبرتقال. وتابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى ينبوع، وكنتُ عطشاناً، فنزلتُ من على فرسي مبقياً مقودها بيدي، وانحنيت لأشرب.. ونظرت إلى الأعلى على نحو مفاجئ، فرأيت الشركسي ورجله في الرِّكاب على الجانب الآخر من الفرس. فقد قرر أن يركبها ويهرب بها. لقد كنت معه والله مثل أبيه وأمه.. ولذلك فقد ضربته بصفحة سيفي فسقط على الأرض.. ثم كتّفْتُه وقُدْته حتى حمص وسلمتُه إلى الحكومة.. هذا هو أسلوب الشراكسة بالتعامل، لعنة الله عليهم».

وسألته عن الطريق إلى مكة والصعوبات التي يعاني منها الحجاج على الطريق.

قال: «لوجه الله إنهم يعانون!، يمشون عشرة أيام من معان حتى مداين صالح، وعشرة أيام من هناك حتى المدينة، وعشرة من المدينة حتى مكة، وتتفق

القبائل البدوية على التآمر عليهم مع شريف مكة، ويسرق البدو الحجاج ويتقاسمون الغنيمة مع الشريف. وليس سيرهم هيناً كسير أولاد الأكابر، ففي بعض الأحيان يكون بين الماء والماء خمس عشرة ساعة من السير المجهد، وقد يصل إلى عشرين وفي المرحلة الأخيرة من المسير إلى مكة تبلغ المسافة ثلاثين ساعة.

وتدفع الحكومة الآن أتاوات للقبائل البدوية للسماح للحجاج بالمرور بسلام، وهم عندما يعلمون باقتراب قافلة الحجاج يتجمعون على التلال المجاورة للطريق ويصرخون منادين أمير الحج: «أعطنا نصيبنا يا عبدالرحمن باشا»، ويعطيهم أمير الحج: بحيث ينال كل بدوي شيئاً طبقاً لما يستحقه، فبعضهم يأخذ مالاً، وآخر غليوناً وتبغاً وثالث منديلاً والرابع عباءة أو خماراً».

ولا يعاني الحجاج الصعوبات وحدهم على طريق الحج، فالحرس الذين يقيمون في المخافر التي تحرس مصانع المياه على طول الطريق يعانون أيضاً، فكل مخفر هو بمثابة سجن.

وقد حدث مرة وكنت في قافلة الحراسة العسكرية، ومرض حصاني ولم يعد يستطيع السير، وتركوني في إحدى القلاع بين مداين صالح والمدينة حتى يعودون، وبقيت ستة أسابيع أو أكثر مع حاكم القلعة لم نر أثناءها أي مخلوق، كنا نأكل وننام في الشمس، ثم نأكل مرة ثانية وننام؛ وذلك لأننا لم نكن نجرؤ على الركوب خارج القلعة خوفاً من عرب الحويطات وبني عطية الذين كانوا في حالة حرب بينهم، والإنسان قد يعيش هناك عشر سنين ولا يخرج مسافة ربع ساعة عن القلعة؛ وذلك لأنه يحرس المؤن التي تطعم الحجاج عندما يمرون.

قال محمود بإيماءة شاملة من يده من الأرض إلى السماء: «والله لقد أمضى قائد الحامية عشر سنوات قائداً لحامية القلعة ولم يشاهد خلالها سوى الأرض والسماء، وكان لديه ولد صغير أطرش وأخرس، ولكن عينيه تبصران أبعد من أي رجل، وكان يراقب طيلة النهار من برج القلعة.

وقد جاء في أحد الأيام إلى أبيه راكضاً وأشار بيديه، وعرف أباه أن ابنه شاهد مجموعة من الغزاة في المدى البعيد، وركضنا إلى داخل القلعة وأغلقنا الأبواب، واقترب الخيالة من القلعة، خمسمئة من بني عطية وردوا على الماء، وبعد أن سقوا خيولهم طلبوا منا طعاماً، فرمينا لهم بالخبز؛ لأننا لم نكن نجرؤ على فتح الأبواب، وبينما كانوا يأكلون أتى عبر السهل غزاة من الحويطات وأخذوا بتبادل إطلاق النار تحت أسوار القلعة.

واستمر قتالهم حتى صلاة المغرب، وعاد من بقي حياً منهم من حيث جاء بعيداً عن الحصن، تاركين موتاهم الذين بلغ عددهم ثلاثين، وبقينا الليل بطوله داخل الأبواب المغلقة، وعند الفجر نزلنا من القلعة ودفنا الأموات، ولكن أن يعيش الإنسان في قلعة على طريق الحج أفضل من أن يذهب كجندي إلى اليمن، فهناك لا يأخذ الجنود رواتبهم ولا ينالون كفايتهم من الطعام، والشمس تحرق مثل النار، في اليمن إذا كان الرجل واقفاً في الظل وشاهد محفظة مليئة بالذهب في الشمس بالله لن يذهب ليلتقطها، وذلك لأن الحر مثل نار جهنم. يا سيدة، هل صحيح أن الجنود في مصر يقبضون رواتبهم أسبوعياً وشهرياً؟.

وأجبت: إنني أظن أن الوضع ينبغي أن يكون كذلك مثلما هو الأمر في الجيش الإنكليزي.

قال محمود: «بالنسبة لنا تتأخر رواتبنا دائماً نصف سنة وقد يصل التأخير إلى اثني عشر شهراً، ثم لا يعطونا إلا ستة أشهر، والله أنا لم أقبض في حياتي أكثر من ثمانية شهور في السنة».

أضاف: «مرة كنت في الإسكندرية ـ ما شاء الله، ما أجمل المدينة! منازل كبيرة مثل قصور الملوك، ولكل الطرق أرصفة ليمشي عليها الناس.. وهناك شاهدت سائق عربة أقام دعوى على سيدة من أجل أجرته، وقد حكم القاضي له.. بالحقيقة إن أساليب القضاء تختلف عما لدينا.. (لاحظ محمود متفكراً) ثم وبانتقال مفاجئ صرخ: «انظري يا سيدة هناك أبو سعد!» [١] ونظرت فشاهدت أبا سعد في الحقل المزروع، كان معطفه أبيض نقياً ليس عليه أي لطخة كما لو كان لم يأت تواً من رحلة أبعد من رحلات أبي محمود، وردناه الأسودان مطويان بإحكام على جنبه، وأسرعتُ لأرحب بأبي الحظ، حيث بنظر السوريين إلى اللقلق نظرتنا إلى السنونو في بريطانيا، وهو مثله مثل السنونو لا يصنع صيفاً.

ركبنا ذلك اليوم إلى قلعة المضيق في جو شديد المطر، قلعة المضيق هي أفاميا السلوقية، وقد بناها سلوكس نيكاتور، باني المدن العظيم الذي بنى كثيراً من المدن على اسم بنات الآلهة:

(سلوقيا في بيريا [٢]، سلوقيا في كاليكادنس [٣]، وسلوقيا في بابيلونيا[٤] ومدنا أخرى غيرها).

---

(١) في مدينة حماة يطلق اسم أبو سعد على طائر اللقلق، كما يطلقون عليه اسم حاج لك لك (حاج لق لق). (المترجم)

(٢) مقاطعة يونانية قديمة شمال شرق اليونان في ماسبدونيا شمال تيسالي. (المترجم)

(٣) Calycadnus كاليكادنس، لم جد اسم هذه المدينة في قاموس وبستر. (المترجم)

(٤) مقاطعة في بلاد الرافدين في واد أسفل نهري دجلة والفرات، كانت أهم مدنها بابيلون التي تقع على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بغداد، قريبة من نهر الفرات. (المترجم)

وعلى الرغم من أن أفاميا قد دمرت نهائياً بالزلزال، فما يزال هناك ما يكفي من الخراب الذي يبرهن على عظمتها القديمة، سعة دائرة أسوارها، عدد معابدها، وعظمة شوارعها المعمدة، وأنت تستطيع أن تتتبع في الشوارع الرئيسية من البوابة إلى البوابة كتل أكوام الأعمدة. كما تلاحظ القواعد الحجرية لهذه الأعمدة في نقاط تقاطع الطرقات، فهنا وهناك مداخل قصور فخمة مفتوحة إلى داخل باحة، وقد سوي القصر الذي كانت مدخلاً له بالأرض، وهنا نقش فارس مسلح يزين بلاطة جنائزية، قد سجلت عليها الوقائع الحية لنموذجه الأصلي.

وقد تناول المسيحيون الشعلة الحضارية من حيث انتهى السلوقيون، فثمة خرائب لكنيسة كبيرة ذات فناء واسع تلتف حوله مجموعة من الأعمدة مرمية على حافة الشارع الرئيسي. وبينما كنت أغرق بأمطار الربيع الناعمة عبر العشب العميق والأزهار والبرواق المتثاقل باتجاه بومات رمادية خاب أملهن فجلسن وعيونهن نصف مغمضة على أكوام الحجارة، بدا تاريخ وهندسة المدينة نموذجاً للاندماج الرائع بين اليونان وآسيا الذي حدث نتيجة لاحتلال الإسكندر لهذه البلاد. لقد كان هنا ملك إغريقي كانت عاصمته تقع على الدجلة، ينشئ مدينة على العاصي ويسميها باسم زوجته الفارسية. أي بنّائين عظام هؤلاء الذين رفعوا هذه الأعمدة التي تزين كل المدن الإغريقية الطراز في سوريا، بنماذج تقليدية حفلت بروح السخاء الشرقي؟ وأي مواطنين أولئك الذين مشوا بين هذه الأعمدة مادّين أياديهم إلى أثينا وبابليون؟.

والقسم الوحيد المسكون من قلعة المضيق هو الحصن نفسه الذي يقع بجانب الجزء الأعلى من القلعة السلوقية.

١١٤ ـ رأس عمود في حماة

وتقع القلعة على هضبة تطل على وادي العاصي وجبال النصيرية، وهي بناء عربي بشكل رئيسي، ورغم أن أياد كثيرة ساهمت في بنائها فإن النقوش العربية والإغريقية مختلطة على نحو فوضوي في الأسوار، وثمة جزء صغير من بناء يقع إلى جنوب القلعة ذو طابع تقليدي لم أستطع أن أجد إيضاحاً لطبيعته، لقد بدا وكأنه جزء من منصة مسرح لأن الأرض المرتفعة خلفه تنحدر على شكل مدرج للنظارة. وربما أمكن بحفر بسيط إظهار آثار المقاعد تحت الأرض المعشبة، وفي الوادي ثمة مسجد صغير وخان جميل نصف مهدّم أيضاً.

وقد قدّم لي شيخ القلعة القهوة، وأخبرني رواية أخرى عن مشكلة آل السيجري تتناقض مع الروايتين السابقتين اللتين سمعتهما أولاً، وقد هنأت نفسي لأنني قررت منذ البداية أن لا أجري أي محاولة للمساعدة على حل المشكلة.

يبدو سهل العاصي من قمة القلعة مغموراً جميعه بالماء، وقد قال الشيخ إنه مستنقع العاصي الكبير. وهو يجف في الصيف فتتصل القرى الجزرية باليابسة وتصبح جزءاً من السهل. «أنا أرى الآن هذه القرى الجزرية»، نعم إنها غير صحية على نحو أكيد فسكانها يعانون صيفاً وشتاء من الحمى ومعظمهم يموتون في شرخ الشباب ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ويصبح هؤلاء القصيروا الأعمار في الشتاء والربيع صيادي أسماك، أما في الصيف فيصبحون مزارعين لحسابهم وبالأسلوب الخاص بهم، فهم يقطعون القصب ويبذرون فوقه الذرة، ثم يحرقون البقايا فتنمو الذرة من بين الرماد مثل طائر الفينيق لكن في الزراعة.

في أفاميا قارَبَ الكعك الرائع الذي اشتريته من دمشق على النفاد، وهي تبدو مشكلة جدية عندما تكون قائمة الطعام مناسبة لشخص واحد فقط. لقد كان الغداء هو الوجبة الأكثر سواغاً بين كل وجباتنا، بيض مسلوق جاف، وقطع من لحم بارد غليظ لم يعد يثير الشهية بعد خزنه لمدة تتراوح بين الشهر والشهرين. وعلّمت ميخائيل تدريجياً بأن يُنوّع وجباتنا من المواد التي تقدمها المصادر المحلية: زيتون، جبنة، حليب، غنم، فستق مملح، معقود المشمش، ونصف دزينة أخرى من الأطعمة اللذيذة بما في ذلك الكعك الشامي.

وقد اعتاد الخدم المحلّيّون أن يطعموا السائحين الأجانب السردين ولحم البقر المعلب، ويظنون أنه دون شرف الأوربيين أن يقدموا لهم من الأطعمة المحلية، ولذلك يجب أن تذهب إلى السوق معهم، وتبين لهم الأصناف التي ترغب بشرائها، وإلا فإنك سوف تقضي رحلتك على أكل لحم الغنم البارد في أغنى بلاد العالم بمواد الطعام.